قتلوه قتلهم الله

د. عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف :

<http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب :

<https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3_Hje4JaCw>

 الأولى

قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ ..

يقول جابر بن عبدالله >: خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ @ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ» رواه أبو داود وحسنه الألباني في المشكاة (531).

الفتوى شأنها عظيم ، وخطرها جسيم ، والقول على الله بغير علم ذنب إثمٌ كبير ، والتحليل والتحريم بغير علم كذب على الله وشرٌّ مستطير ﭽ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﭼ الإسراء: ٣٦

فالجرأة على الإفتاء بالحلال والحرام، والتوقيع عن رب العالمين هذا حلال وهذا حرام شأنه عظيم.

قال الإمام ابن القيّم ~ : وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ، بَلْ جَعَلَهُ فِي الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا مِنْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﭽ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﭼ الأعراف: ٣٣

فَرَتَّبَ الْمُحَرَّمَاتِ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ، وَبَدَأَ بِأَسْهَلِهَا وَهُوَ الْفَوَاحِشُ، ثُمَّ ثَنَّى بِمَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْهُ وَهُوَ الْإِثْمُ وَالظُّلْمُ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ تَحْرِيمًا مِنْهُمَا وَهُوَ الشِّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ رَبَّعَ بِمَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ . إعلام الموقعين عن رب العالمين (1/31).

يا قوم إن من أكبر الجنايات التي عمّت وطمّت وأصبحت مرتقى سهلا يتسلّق جدرانه كل من هبّ ودبّ !

أن أصبح التحليل والتحريم في شرع الله كلأً مباحاً مشاعاً لكل سائمة وهائمة .

وتصدّر الصغير والكبير والمتعلم والمتعالم للتحليل والتحريم في شرع الله وملئت المجالس والكتب والصحف وقنوات التواصل بالفتاوى والأحكام والتحليل والتحريم والكراهة والإباحة وأرى ولا أرى، ودخل الناس إلى ميدان الإفتاء من أوسع أبوابه ، وكثر المتسوّلون على حمى الشريعة بالخوض في دين الله بلا ورعٍ وازعٍ ، ولا خوفٍ رادعٍ ، بل سباقٌ في القنوات والمجالس في عرض أحكام الشريعة ، ونشر الأقوال الشاذّة ، والفتاوى الساقطة بلا حجّةٍ ولا بيّنة.

فلا تعجب إذا وقفت على من لا يحفظ إلاّ يسيراً من كتاب الله ، ناهيك عن حديث رسول الله @ وأقوال المحقّقين والراسخين من أهل العلم بل لم تمسّ يده متناً فقهيّاً ، أو شرحاً حديثيّاً ، أو نظماً أصوليّاً ، بل ربّما لم يقرأ كتاباً علميّاً ، ولم يسمع عن الأحكام التكليفيّة والوضعيّة ، ثم تراه مصابا بجنون العظمة فيفتي بغير علم ويناقش أبا حنيفة ويخطّئ الشافعي، ويرد على أحمد بن حنبل ، ويباهل الذهبي مرددا مقولةً حق أريد بها باطل فيقول : هم رجال ونحن رجال .

صدق رسول الله @ «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» رواه مسلم .

يا كرام إن من أعظم خصائص أهل السنة والجماعة تعظيم الفتوى .

يقول ابْنُ سِيرِينَ ~ : لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ @ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ >، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ >. جامع بيان العلم وفضله (1555).

وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى يقول: أَدْرَكْتُ عِشْرِينَ وَمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ @، فَمَا مِنْهُمْ مُحَدِّثٌ إِلا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْحَدِيثَ، وَلا مُفْتٍ إِلا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفُتْيَا. شرح السنة للبغوي (1/305).

وَكَانَ مَالِكٌ ~ يَقُولُ: مَنْ سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَيَنْبَغِي لَهُ قَبْلَ أَنْ يُجِيبَ فِيهَا أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَكَيْفُ يَكُونُ خَلَاصُهُ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ يُجِيبَ فِيهَا. إعلام الموقعين عن رب العالمين (4/167).

وَسُئِلَ الإمام المجتهد الفقيه مالك بن أنس، إمام دار الهجرة عَنْ مَسْأَلَةٍ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، فَقِيلَ لَهُ: إنَّهَا مَسْأَلَةٌ خَفِيفَةٌ سَهْلَةٌ، فَغَضِبَ، وَقَالَ: لَيْسَ فِي الْعِلْمِ شَيْءٌ خَفِيفٌ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ : ﭽ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭼ المزمل: ٥ فَالْعِلْمُ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَالَ: مَا أَفْتَيْتُ حَتَّى شَهِدَ لِي سَبْعُونَ أَنِّي أَهْلٌ لِذَلِكَ، وَكَانَ ~ إذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَكَأَنَّهُ وَاقِفٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. إعلام الموقعين عن رب العالمين (4/167).

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ~: أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا إنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ فَيَتَكَلَّمُ وَإِنَّهُ لَيَرْعَدُ.

إعلام الموقعين عن رب العالمين (4/167).

يقول عُقْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ أَرْبَعَةً وَثَلَاثِينَ شَهْرًا فَكَثِيرًا مَا كَانَ يُسْأَلُ فَيَقُولُ: «لَا أَدْرِي» ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَيَّ فَيَقُولُ: «تَدْرِي مَا يُرِيدُ هَؤُلَاءِ؟ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا ظُهُورَنَا جِسْرًا لَهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ» جامع بيان العلم وفضله (1585).

يقولُ الإمام الفقيه ابْنُ وَهْبٍ بعدما لزم شيخه الإمام مالك: لَوْ شِئْتُ أَنْ أَمْلأَ أَلْوَاحِي مِنْ قَوْلِ مَالِكٍ: لاَ أَدْرِي، لَفَعلْتُ. سير أعلام النبلاء (7/185).

نعم عباد الله إنها الفتوى إنه التحليل والتحريم والتوقيع عن رب العالمين.

ولذا كَانَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ وهو من كبار التابعين ومن الفقهاء السبعة لَا يَكَادُ يُفْتِي إلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ مِنِّي. إعلام الموقعين عن رب العالمين (2/128)

وكان الإمام أحمد رحمه الله كثيراً ما يُسأل فيتوقف ويقول (لا أدري) الإمام أحمد إمام أهل السنة والجماعة الذي يحفظ ألف ألف حديث يقول لا أدري بل قَالَ أَبُو دَاوُد فِي مَسَائِلِهِ: مَا أُحْصِي مَا سَمِعْتُ أَحْمَدَ سُئِلَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا فِيهِ الِاخْتِلَافُ فِي الْعِلْمِ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي.

إعلام الموقعين عن رب العالمين ( 1/27)

 كان لعبارة لا أدري عند السلف منزلة فقد قال ابن مسعود > : إذا سئل أحدكم عما لا يدري فليقل: لا أدري، فإنه ثلث العلم. المقاصد الحسنة (1281).

وهذا الإمام العالم المالكي سحنون يرحمه الله يقول : إني لأسأل عن المسألة، فأعرف في أي كتاب وورقة وصفحة وسطر، فما يمنعني عن الجواب فيها إلا كراهة الجرأة بعدي على الفتيا. ترتيب المدارك وتقريب المسالك (4/75).

جَهِلْتَ فَعَادَيْتَ العُلُومَ وَأَهْلَهَا

 كذاكَ يعادي العلمَ منْ هوَ جاهلهْ

وَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّرَّاً

 ويكرهُ لا أدري أصيبتْ مقاتلهْ

لقد كان نكير السلف شديدا على من اقتحم حمى الفتوى ولم يتأهل لها، فكان أبو حنيفة يرى الحجر على المفتي الجاهل والمتلاعب بأحكام الشرع .

ودَخَلَ رجلٌ عَلَى رَبِيعَةَ العالم الإمام الجبل الهمام شيخ الإمام مالك فَوَجَدَهُ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ وَارْتَاعَ لِبُكَائِهِ فَقَالَ لَهُ: أَمُصِيبَةٌ دَخَلَتْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِ اسْتُفْتِيَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، قَالَ رَبِيعَةُ: وَلَبَعْضُ مَنْ يُفْتِي هَا هُنَا أَحَقُّ بِالسَّجْنِ مِنَ السُّرَّاقِ . جامع بيان العلم وفضله (2410).

قال الإمام أحمد بن حمدان الحرّاني الحنبلي بعد ما ساق الخبر : فَكيف لَو رأى زَمَاننَا وأقدام من لَا علم عِنْده على الْفتيا مَعَ قلَّة خبرته وَسُوء سيرته وشؤم سَرِيرَته . صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، ص11.

ونحن يا أهل الايمان في عصر الضعف العلمي والجهل المقيت ماذا سيقول الأمام ربيعة الرأي ، والإمام أحمد الحراني عن زماننا هذا والجرأة على الفتيا وإقدام من لا حظّ له في العلم بل ولا حتى في الديانة والاستقامة وصدق القائل يوم قال :

تصدَّر للتدريس كلُّ مهوَّس

بليدٍ تَسمَّى بالفقيه المدرسِ

فحُقَّ لأهل العلم أن يتمثَّلوا

ببيتٍ قديم شاع في كل مجلسِ

لقد هُزِلَت حتى بدا من هُزالها

كُلاها وحتى سامها كل مُفلسِ

وليت الأمرَ بالفتوى والتحليل والتحريم كان خطره حكراً على المنتسبين للعلم من ذوي التخصصات الشرعية !

كلاّ !!

بل تعدّاه إلى فئة ليست بالقليلة من بني قومنا فذاك يفتي وهو ممثلٌ سينمائي ، وذاك يفتي وهو فنّان غنائي ، وذاك يفتي وهو كاتب صحفي ، فطفحت الصحف بالفتاوى الغريبة فمفتي يقول إن صيام ست من شوّال بدعة ، وآخر يقول إن إغلاق المتاجر في أوقات الصلاة شللاً للحركة الاقتصادية ، وآخر يقول إن وضع الحواجز بين الرجال والنساء في المسجد الحرام بدعة .

بل أفتى بعضهم بجواز الثورات والمظاهرات والخروج على الولاة فجرّ على الأمة بفتواه شراً مستطيراً وبلاءً عظيماً ﭽ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﭼ النور: ١٥

وعلى الدين يبكى ... فكم من فتاوى وأقوال بغير علم زلَّت بها ألسنة لم تراقب الله، ولم تفقه من دين الله شيئا جرّت على الأمة بلايا ورزايا ، وكم من أحكام وآراء تعسفيّة ساقت كثيراً من الشبيبة إلى مزالق خطره بل ربما قادتهم إلى هاوية الشبهات والخروج على الولاة والتكفير والتفجير، ولكنّ الله الموعد .

إن الجرأة على الفتوى دون علم راسخ اقتحام لأعظم الذنوب ، بل وصل الحال ببعض الشبيبة ومن قصر باعهم في العلم بهمز ولمز العلماء الراسخين واتهامهم في نياتهم وعقائدهم، وأصبح الحديث في علوم الشريعة بضاعة كل متعالم مأفون فكم من مسائل عظمى تعرض في مجالس العوام وأشباه المثقفين وبعض صغار طلبة العلم تبوء بآراء وترجيحات لم يسبق إليها ، بل لو عرضت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر .

بل طالب بعض مثقفي العصر بالترخيص والقول بالأيسر، والنظر في حرمة الربا، وتعدد الزوجات، وهكذا نساق إلى سيل من التلاعب بأمور بالشريعة والحلال والحرام .

فويل ثم ويل لكل من ارتقى هذا المرتقى الصعب ، ورحم الله الإمام القاسم بن محمد إذْ يقول : لَأَنْ يَعِيشَ الْمَرْءُ جَاهِلًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَقُولَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ.

جامع بيان العلم وفضله (1573)

أقول قولي هذا وأستغفر الله ...

 الثانية

ﭽ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﭼ الإسراء: ٣٦

قال الإمام القرطبي ~ عند هذه الآية: ﭽ ﯯ ﯰﭼ أَيْ لَا تَتْبَعُ مَا لَا تَعْلَمُ وَلَا يَعْنِيكَ.

قال قتادة : لَا تَقُلْ رَأَيْتُ وَأَنْتَ لَمْ تَرَ، وَسَمِعْتَ وَأَنْتَ لَمْ تَسْمَعْ، وَعَلِمْتَ وَأَنْتَ لَمْ تَعْلَمْ. الجامع لأحكام القرآن (10/257).

فليتذكر كل واحد منّا يوماً تكعُّ فيه الرجال ، وتشهد فيه الجوارح والأوصال، ويحصّل يومئذٍ ما في الصدور

ﭽ ﰆﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﭼ الصافات: ٢٤

فليتق الله شبيبة حدّثوا الناس بغير علم ، فليتق الله صحفيا كتب في شرع الله بغير علم ، فليتق الله كل من تصدّى للعلم والإفتاء فإن الأمر جد خطير .

فسلامة النيّة وحسن المقصد لا يشفعان للعبد فها هو النبي @ يدعو على من أفتى من أصابته الجنابة بغير علم فيقول : قتلوه قتلهم الله .

وأني في هذا المقام لأعظ نفسي وإياكم والقائمين على أعمال الحج من القول على الله بغير علم والجرأة على الفتوى فما من أحد في الحج إلا ويحمل لواء الفتوى حتى بدت أحكام الحج ميدانا للتنافس بين المتعالمين، وها أنت ترى وتسمع بأغرب الفتاوى فتجرأت الألسن في أحكام الحج فهذا يقول حراما وهذا يقول حلالاً وثالث يقول عليك دم ، ورابع افعل ولا حرج.

ﭽ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﭼ النور: ١٥

انتهت الخطبة